صقر الصحراء

بقلم : محمود البدوى

كنا ثلاثة من الشبان الأشداء ·· خرجنا من القاهرة فى سيارة جيب فى وسط النهار الى قلب الصحراء ···

وكان الجو حارا والطريق صعبا ··· والسيارة العتيقة تخب بنا خبا فى جو ينذر بالزوابع ·

وبدت الرمال من حولنا صفراء تلتمع من وهج الشمس الحامية وكثبان الرمان تسفيها الريح ·

وتلفعنا واتقينا الشمس والعاصفة ما وسعنا الجهد ··· وكانت البيداء من حولنا لا يحدها الطرف ·

وكنا نعرف الطريق الى البئر ·· ولكنا نخشى العطب الذى يصيب السيارة

ولذلك أعددنا العدة بقطع الغيار اللازمة لكل الطوارىء ·

وكنا نحن الثلاثة نعرف فى ميكانيكا السيارات أكثر من معرفتنا بأمور الحفر فى البئر الذى نقصده ··

وكانت البئر هناك فى أرض رملية على مبعدة ١٦٠ كيلومترا من المدينة ونود أن نطبق على التربة العذراء نظرية علمية معززة بالتجربة العملية ··

ونجرى عليها الماء ونزرعها ثمارا وبطيخا ما بلغنا القصد ··

وكان العمال يقومون هناك بأعمال الحفر والمحراث يقلب التربة وكل شىء قد هيىء للزراعة ·

وعندما قطعنا مايقرب من ثلاثين كيلومترا فى قلب الصحراء ··· كانت الشمس قد التهبت وزادت حرارتها ·· وحبات الرمال بدت كجمرات من النار المتقدة ··

وأخذ الما يغلى فى جوف السيارة ويتصاعد منه البخار فأخذنا ··· نزوده بالماء البارد بعد كل مرحلة خشية احتراق لمحرك ··

ولم يكن هناك طير يحلق فى السماء ولا وحش فى الارض ·· وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر هدأت الريح وسكنت الزوبعة وبدت الرمال ·· الساكنة ·· هى الشىء الوحيد الذى يتنفس فى هذا التيه ·· فلم يكن هناك زرع ولا ظل لزرع ··

وكنا قد رفعنا الغطاء فوق السيارة منذ اشتعال الشمس وهبوب العاصفة ·

وجلس أحدنا بجانب السائق ··

وجلست وحدى فى الخلف مسترخيا حالما بالزرع النضير فى تلك البيداء .. التى بدت كأنها لا تتنفس فيها الحياة .

وكانت معنا زوادة كاملة من الطعام والشراب ولكن حتى عندما اقترب .. العصر لم نكن نحس بجوع .. وشربنا قليلا من الماء حتى لا نغرق فى طوفان من العرق .

وكنا ثلاثتنا ندخن بكثرة وكان السائق أكثرنا شراهة فى أشعال .. النار .

وكانت الطريق خالية من السيارات تماما ولكن صعوبتها جاءت من أنها غير سوية وكثيرة المتعرجات والمرتفعات فكنا نعلو ونهبط بعد كل خمسين .. ذراعا.

وظهر للعيان أنها أقيمت على سلسلة من التلال التى يأخذ بعضها برقاب بعض وأن الذين اختاروا لها هذا المكان لم يجدوا ما هو أحسن منه .

والذى يقطع الصحراء يحس بالوحشة بعد ساعة واحدة من رهبة التيه وفرط السكون المخيم وأحسسنا بالوحشة من خلو الطريق وسكونه .

وكان مع أكبرنا سنا بندقية صيد.. ولكنا لم نعثر قط على شىء نطارده .. ولم يكن الصيد قصدنا ولا مبتغانا فلم نبتئس ...

وكنا نحن الثلاثة فى سن متقاربة ولا نتجاوز الخامسة والعشرين من أعمارنا ولم نتزوج بعد ودار فى خلدنا ونحن نمضى فى هذا التيه أنه اذا غمرتنا الرمال فليس هناك من ولد يبكينا ولا زوجة تندبنا ... وان المسألة ستمر بسلام .. !

وبعد أن اجتزنا نصف المرحلة هبت نسمة من الهواء الرخى أنعشت نفوسنا ورطبت أفئدتنا ولكن بعد دقائق معدودات خنقتها الحرارة ... الخانقة.. وذابت فيها .

وسرنا والعرق يسح والارض تتنفس مثل النار .

وكان لابد أن تستريح السيارة بعد ثلاث ساعات من السير الجاد . فملنا بها عن الطريق .. ورفعنا غطاء المحرك ...

وأكلنا بعض الزاد وشربنا وبعد نصف ساعة تحركنا بمثل الحال الأول ولكن الراحة القليلة أفادتنا كما أفادت السيارة .

وكانت الرؤية واضحة والسماء أكثر صفارا وزرقة من أى ساعة.. شاهدناها فيها .

وعندما مالت الشمس بنا الى المغيب لمحنا من بعيد قافلة من الجمال على الجانب الأيمن من الطريق .

ولما اقتربت منا لاح راعيها بعصاه الطويلة وتمهلنا وغيرنا من سرعة السيارة مخافة أن تنفر الجمال على صوت المحرك .. أو أن تغير وجهتها وتعبر أمامنا الطريق وكنا فى واقع الحال نعود لنملأ عيوننا منها ... كانت بيضاء جميلة وقد لوحت جلودها الشمس .

وكان منها ذا السنامين ولكنها كانت كلها مرفوعة الرءوس شامخة تحدث عن سلالة عربية أصيلة .

ولما برحتنا أسفنا لفراقها فقد أنسنا بها لحظات هنية ..

وبعد مرحلة طويلة من السير الجاد أدركنا أننا ضللنا الطريق وأننا نسير فى غير وجهتنا ..

وتملكنا الهلع وتوقفنا ونحن نرمى بصرنا فى كل اتجاه كأننا نتلمس المخرج من هذا التيه ..

وقر قرارنا بعد أن تبينا الملامح والمعالم التى حولنا والتى كانت جديدة علينا أن نستقبل من طريقنا ما استدبر حتى نرجع خمسين كيلومترا الى الوراء .. ومن متعرج على الدرب نأخذ الطريق الصحيح الى البئر .

وفيما نحن نلف بالسيارة ظهر عند خط الأفق شىء أشبه بكوخ على ربوة ... فعجبنا لوجود مثله فى هذه البيداء القاحلة ..

وحسبنا أن أبصارنا خدعتنا فى مثل السراب ولكن لما دققنا النظر وجدنا الأمر جليا وظهر الكوخ بوضوح .

ودفعنا الفضول والعجب أن نتجه اليه أولا اذ كان من الحكمة والصواب أن نسترشد بمن فيه على معالم الطريق .

وأخذنا الطريق اليه ولما اقتربنا ظهر بيت من طابق واحد .. وأمامه بستان من النخيل ولم يكن على الباب أحد ..

***

وترجلنا من السيارة ودرنا حول المكان فلم نعثر على انسان ما ..

ثم تقدم أحدنا وقرع البـاب .. فوثب على صوت القرع كلب يبدو أنه كان نائما فى البستان وأخذ علينا الطريق .. ثم أخذ يتحرش بنا فى توحش فتراجعنا الى الخلف مذعورين وصاح أحدنا مرعوبا .

وخرج على الصوت شيخ طعن فى السن وأطل من الباب بعينى صقر وكان يلتفت بحرام ويعتمد على عضد الباب ويطل من وجهه المرض ...

وزجر الكلب ودعانا للدخول ودخلنا على التو .. لما تبينا أنه مريض وان وقفته على الباب ستؤذيه ...

واعتذر الشيخ لمرضه ورجع الى فراشه فى فناء البيت ... وهو لا يكاد يتماسك

وأبدينا أسفنا لأننا أزعجناه وهو مريض وحكينا له ماحصل من ضلالنا فى الطريق فبين لنا كيف أخطأنا .. وخشى أن نضل أكثر لو سرنا فى هذه الساعة ودخل علينا الليل. واستحسن أن نقضى الليل فى ضيافته وفى الصباح المبكر ... نستأنف سيرنا ..

ولأن الشيخ كان فى حالة شديدة من المرض وهو فى هذا المكان رأينا أن نبقى بجانبه هذه الليلة لعلنا نقدم له كل عون ونساعده على الشفاء ..

وأشار بيده الى الشاى والطعام فى الداخل فشكرنا بحرارة .. وقلنا له ان معنا زوادة كافية .

وكان معنا اسبرين وبعض الأدوية التى تقى ضربة الشمس فصنعنا له شايا وقدمنا له الدواء .

وحدثنا عن حياته وكيف يتاجر فى البلح والجمال ... وان أولاده متفرقون

فى الصحراء يجرون وراء معاشهم ..
وانه مذ ماتت زوجته يعيش وحده ..

وقد اعتاد على هذه الوحدة والفهـا وأصبح يستانس بالحيوان كما يستانس بالانسان دون أدنى فارق ...

ولما دخل الليل أشعل السراج ولشدة الحرارة تمنا جميعـا فى العراء خارج الكوخ ...

وترك الشيخ بابه مفتوحا ونام فى مدخل الباب لمرضه .. وبعد الساعة العاشرة ليلاً أخذنا النوم جميعا ..

وفتحت عينى على شىء أسود وقف على رأسى ولما أمعنت البصر فيه صرخت وعلى أثر الصرخة صحا رفيقى الذى معه البندقية ولكنه من فرط الرعب الذى انتابه وهو ينظر الى الوحش ارتعشت يده ولم يحـــرك الزناد .. ثم أطلق طلقة طائشة .

وكان الشـيخ قد بصر بالضبع فى نفس اللحظة التى رأيته فيهـا وظل يجاهد ويتحامل على نفسه وهو مريض حتى وصل الى مكا نالبندقية .. ورأيته ينتصب وقد التمعت عيناه ونضح وجهه عرقا ...

ونسى فى غمرة الانفعـــال لما حدث مرضه تماما .

وخرج يشق الطريق فى الظلام الى حيث الوحش ...

وكان كل من يراه وهو يمســـك بالبندقية يدرك أنه رجل من طراز فريد فى رجال الصحراء ... وطواه الظلام ولم نعد نراه .

وبعد قليل سمعنا صرخة وفزعنا ولم ندرى أصرختـه هو أم صرخة الوحش ولكن لم تمض لحظات أخرى حتى رأيناه راجعا وكان يمشى بتؤدة ... ويسحب شيئا أسود ضـخما لايزال يقطر منه الدم .

وكنا قد سمعنا كثيرا ونحن نتجول بسيارتنا فى هذه البيداء عن صـــقر الصحراء ولكنا لم نكن قد رأيناه عن قرب ...